شعر ابن جبير

مأمون الصاغرجي

عُرف ابن جبير الرحّالة الأديب برحلته الشهيرة « رحلة ابن جبير » ، ولم تطلق عليه كتب الأدب صفة الشاعر إلا في القليل النادر ، بيد أنها ذكرت أن له شعراً يمتاز بجودة الطبع ، ورقة الحاشية ، ونصاعة البيان[1] ، وأن له ديوان شعر بقدر ديوان أبي تمام ، ومنه جزء سمّاه « نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان » وأن له جزءاً آخر منه في رثاء زوجته أمِّ المجد سمّاه « نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح » ، ولم يصل إلينا – فيما نعلم – شيء عن هذين الجزأين أو بقية الديوان[2] .

وأُهدي بأَخَرَة إلى خزانة المجمع بدمشق كتاب يحمل عنوان « شعر ابن جبير » جمع وتحقيق الأستاذ فوزي الخطبا (دار الينابيع للنشر والتوزيع – عمّان ١٩٩١) نقدّم فيما يأتي نبذة عنه :

تبلغ عدة صفحاته ١١٠ صفحة من القطع الصغير ، ذكر مؤلفه أنه جمع قصائده ومقطّعاته من المصادر والمراجع التي تحدثت عن ابن جبير ورحلته ، ورتبها متسلسلة القوافي حسب حروف المعجم ، وذكر في مطلع كثير منها المناسبة التي قيلت فيها لتعين القارئ على فهم شعره . وقدّم لها

---

(١) انظر « الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » للأنصاري ، السفر الخامس ، القسم الثاني ص٦٠٧ ، ٦٠٨ .

(٢) انظر المصدر السابق والأعلام للزركلي ٥/٣٢٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بكلمة تحدث فيها عن حياة ابن جبير ونسبه وصفاته ، وأعلام عصره من شيوخ وتلامذة ، ثم تحدث عن رحلاته وأسبابها (ص٣ – ٢٧) ، ثم استغرق شعره من ص٣٠ إلى ص١٠٨ .

ويبدو من تخريج الشعر أن جامعه قد استخرجه من سبعة كتب هي : « الإحاطة في أخبار غرناطة » للسان الدين بن الخطيب ، و« نفح الطيب » للمقَّري ، و« الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » لمحمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري ، و« رحلة ابن جبير » و« رحلة العبدري » و« زاد المسافر » لأبي بحر صفوان بن إدريس ، و« المغرب في حلى المغرب » لأبي سعيد الأندلسي .

ويلوح لقارئ شعر ابن جبير تعدُّد الأغراض التي تناولها في شعره ، ففيها النسيب والمديح والحكمة والرثاء والهجاء والعتاب وغير ذلك من الإخوانيات والوصف . فمما يستجاد له قوله في جارية تركها في غرناطة[١] :

ولي بغرناطةٍ حبيبٌ قد غَلِق الرهنُ في يديهِ
ودَّعته وهو في دلالٍ يُظهر لي بعض ما لديهِ
فلو ترى طلَّ نرجسيه ينهلُّ في ورد صفحتيهِ
أبصرتَ دُرًّا على عقيقٍ من دمعه فوق وجنتيهِ

ومما قاله في الناصر صلاح الدين الأيوبي مادحاً وناصحاً[٢] :

أطلَّت على أفقك الزاهرِ سعودٌ من الفلك الدائرِ
فأبشرْ فإنَّ رقاب العدا تُمدُّ إلى سيفك الباتر

(١) شعر ابن جبير ص١٠٥ .

(٢) شعر ابن جبير ص٤٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فكم لك من فتكةٍ فيهمُ حكتْ فتكةَ الأسد الخادر
جنودك بالرُّعب منصورة فناجزْ متى شئت أو صابر
تبيت الملوك على فُرْشها وترفُل في الزَّرَدِ السَّابر[1]
وتؤثر جاهدَ عيش الجهاد على طيب عيشهمُ النافر
وتُسهر جفنك في حقِّ مَنْ سيرضيك في جفنك الساهر
فتحت المقدَّس من أرضه فعادت إلى وصفها الطاهر

وفيها يقول :

محبتكم أُلقيت في النفوسِ بذكرٍ لكم في الورى طائر
فكم لك بالشرق من حامدٍ وكم لك بالغرب من شاكر

إلى أن يقول له ناصحاً فيمن ضمن مال الزكاة فظَلَم وغَشَم :

ألا ناصح مبلغ نصحه إلى الملك الناصر الظافر
ظلوم تضمّن مالَ الزكاة لقد تعست صفقة الخاسر
يُسِرُّ الخيانة في باطنٍ ويبدي النصيحة في الظاهر
فأوقع به حادثاً إنه يقبّح أحدوثة الذاكر
فما للمناكر من زاجرٍ سواك وبالعُرْف من آمر

لقد قام جامع الديوان بعمل طيب يذكر له فيشكر ، بيد أنه في عمله يحتاج إلى كثير من الضبط والعناية والتبصُّر فيما ينقله عن المصادر التي ذكرها في التخريج ، ومن القراءة الأولى للكتاب كانت لي فيه جملة من الملاحظ ، أذكر فيما يأتي شيئاً منها على سبيل الإفادة ، وهي ملاحظ متنوعة تندرج في أربعة أبواب : منها ما يتصل بضبط الكلمة أو رسمها أو ما يلحقها

(١) السابر : مخفف عن السابريّ ، وهو درعٌ دقيقة النسج في إحكام صنعة ، منسوبة إلى الملك سابور . التاج (سبر) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من التصحيف ، ومنها ما يتصل بالعروض ، ومنها ما يتعلّق بالقوافي ، ومنها ما يغلب على الظن أنها من أخطاء الطباعة :

أولاً : ما يتصل بضبط الكلمة أو رسمها ، أو ما يلحقها من التصحيف :

١ – جاء في ص٣٣ البيت (١) :

بِسِبتَةَ لي سكنٌ في الثرى وخِلٌّ كريم إليها أتى

ضُبط اسم المكان « سبتة » بكسر السين ، والصواب فيه الفتح ، كما في القاموس (سبت) ومعجم البلدان ١٨٢/٣ وفيه : سَبْتَة : بلفظ الفَعْلَة الواحدة من الإسبات ... وجاء في تاج العروس (سبت) ما نصه : قال شيخنا : ثم إن المشهور الجاري على الألسنة أن النسبة إليها بالفتح على لفظها ، وجزم الرشاطي أن النسبة إليها سِبْتِيّ بالكسر . وعندي فيه نظر وإن قبله منه شيوخنا وأقروه قياساً على البصرة ونحوه . انتهى .

٢ – جاء في ص ٣٥ البيت (٢) :

حسن القول سيء الفعل كالجز ار سمّى وأتبع القول ذبحا

« سيءُ » كذا كتبت الهمزة على السطر ، والصواب أن تكتب على شبه ياء من غير نقط هكذا « سيِّئ » ، وكذلك ما جاء في ص٤٤ البيت (٤) : « لامريء » ، وما جاء في ص٥٥ البيت (٥) : « امريءٍ » ؛ والصواب فيهما : « لامرئ » و« امرئٍ » ، وهو ما يسمى كرسياً للهمزة وليس ياء معجمة باثنتين . انظر في ذلك كتاب « قواعد الإملاء » لعبد السلام هارون ص١٠ ، و« المطالع النصرية » لنصر الهوريني ص٥٦ ، و« سراج الكتبة » لمصطفى طموم ص٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ – جاء في ص ٥٠ البيت (٥١) :

وإن كان نظمي له نادراً فقد قيل لأحكم النادر

فأصاب الكلمتين الأخيرتين من البيت شيء من التصحيف ، والصواب في روايته « فقد قيل لا حُكْمَ للنادرِ » كما جاء في مصدر التخريج .

٤ – وجاء في ص٥٤ البيت (٢) :

لا أحب الليث في زمنٍ حاجتي فيه إلى البشر

والصواب فيه : « اللَّبْثَ في زمنٍ » ولعله من خطأ الطباعة .

٥ – ص ٥٨ البيت (١٦) :

وحين دنونا لغرض السلا م قصدنا الخطى ولزمنا الوقارا

لقد جار التصحيف على بعض كلمات في هذا البيت ، ولعل الصواب في روايته هكذا :

وحين دنونا لفرض السلام قصرنا الخطا ولزمنا الوقارا

« لفرض » بالفاء ، والميم في الشطر الأول ، و« قصرنا » بالراء المهملة ، و« الخطا » بالألف لأنها جمع خطوة .

٦ – ص ٥٩ البيت (٣٢) :

عسى لحظةٌ منك لي في غد تمهَّد لي في الجنان القرارا

كذا « لحظة » بضمة على التاء ، و« تمهَّد » بفتح الهاء المشددة . والصواب فيها « لحظةٌ ... تُمَهِّد » .

٧ – ص ٧٢ البيت (١) :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قـلم بـه الإقليم أصبح في حمى بثبـاتـه صرف الحوادث يصرف

كذا « بثبـاتـه » بـالثـاء المثلثة ، وهو تصحيف ، والصـواب : « بشَبَاتِهِ » والشباة حَدُّ الشيء وطرفه .

٨ – ص ٨١ البيت (٢) :

كذا شهوات المرء إن لم تكن به موافقـة عـادت عـليهـا بكـلها

والصواب فيه : « إن لم تكن له » كما في مصدر التخريج « الذيل والتكملة » ص ٦٠٩ .

٩ – ص ٨٥ البيت (٥) :

أخي كم نتـابع أهـواءنـا وتخبط عشـواءها في الظُّـلَمْ

كذا « عشواءها » بالنصب ، والصواب بالرفع « عشواؤها » .

١٠ – ص ٩٤ البيت (٢) :

فقلت لخلّي في النوى جد بمدمع فـليس لنـا إلا المـدامع قربـانا

« قربانا » كذا بإطلاق النون المنصوبة ، والصواب « قربانُ » بالنون المضـمـومة كما جاءت في مصـدر التخريج « نفح الطيب » ٤٩٢/٢ على الصواب بالرفع . ولعلها من خطأ الطباعة أيضاً .

ثانياً : ما يتصل بالعروض :

تعـددت الأخطـاء العروضيـة التي وقع فيهـا المحقق جامع الديوان وتنوعت ، فمنها ما يتعلق باختلال الوزن ، ومنها ما يتعلق بالخلط في أسماء البحور .

أما من حيث اختلال الوزن فقد جاء من مصدرين اثنين :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأول : سقوط كلمة أو كليمة من البيت كما جاء في ص ٤٨ البيت (٢٤) :

فكـــم عنـــد ذكر المـــلـ ـوك بمثلك من مثل سـائر

والصواب :

فكم [لهمُ] عند ذكر الملوكِ بمثـــلك من مثَـــلٍ ســـائرِ

– وجاء في ص ٦٦ البيت (٢) :

لعجبت قبحـــاً وملاحـةً منـه وقلت حظيرة أم مكنس

والصواب فيه : « لعجبت قبحاً [منهما] وملاحةً » .

– وجاء في ص ١٠١ البيت (٢) :

صحبت بك الزمان أخا وفاءٍ فهـــا هـو تنـمَّـــر للقـطيعَـــهْ

والصـــواب في الشـطر الثـاني هكـذا : « فهـــا هو [قد] تنمَّرَ للقطيعَهْ » .

الثاني : عدم تساوي وزن البيت في شطرين متساويين ، وهو كثير ، وخاصة في البحر المتقارب ، فنجتزئ منه بثلاثة مواضع :

أ – جاء في ص٤٨ البيت (٢٣) :

رفعت مغـارم أرض الحجا ز بإنعامك الشامل الغامر

والصواب فيه :

رفعْت مغارم أرض الحجازِ بإنعـامك الشـــامل الغامر

ب – ص ٥٨ البيت (١٥) :

ولمـــا حـــللنـــا فنـــاء الرســـو ل نـزلنـــا بـأكرم مجد جـوارا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وصوابه أن تكون كلمة « الرسول » كلها في الشطر الأول هكذا :

ولما حللنا فناء الرسولِ نزلنا بأكرم مجدٍ جوارا

جـ – ص ١٠٦ البيت (١) :

يا دمشق الغرب هاتيك لقد زدت عليها

والصواب فيه أن تكون كلمة « هاتيك » بين الشطرين هكذا :

يا دمشق الغرب هاتيـ ـك لقد زدت عليها

وأما الخلط في أسماء البحور فقد صنف المحقق في آخر الكتاب ص١٠٩ أشعار ابن جبير حسب البحور ، فرصد القصائد والمقطعات كلها وسمّى بحورها ، فأدرج القصيدة رقم (١١) ص٤٠ تحت البحر الكامل وهي من البحر الطويل ومطلعها :

صبرت على غدر الزمان وحقده وشاب لي السمّ الزعاف بشهده

وأدرج المقطعة رقم (٣٥) ص٧٤ تحت البحر الكامل وهي من الطويل ، ومطلعها :

عليك بكتمان المصائب واصطبر عليها فما أبقى الزمان شفيقا

وأدرج المقطعة رقم (٣٨) ص٧٧ تحت البحر الكامل وهي من المتقارب ، ومطلعها :

تغير إخوان هذا الزمان وكل صديق عراه الخللْ

وأدرج المقطعة رقم (٤٠) ص٧٩ في البحر المتقارب وهي من الكامل ، ومطلعها :

لصنائع المعروف فلتة غافل إن لم تضعها في محلّ قابل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكذا المقطعة رقم (٤٢) ص٨١ أدرجت في البحر المتقارب وهي من الطويل ، ومطلعها :

وكم فلتات للصنائع تتقى عواقبها إن لم تقع في محلّها

وكذا المقطعة رقم (٤٤) ص٨٣ أدرجت في البحر الطويل وهي من المتقارب ، ومطلعها :

إذا بلغ المرء أرض الحجازِ فقد نال أفضل ما أمَّلَهْ

ثالثاً : وأما ما يتعلق بالقوافي فقد جاء في ص١٣ من المقدمة قول ابن جبير هكذا :

اسمعُ أُخَيَّ نصيحتي والنصح من محض الديانة
لا تقربن إلى الشهادة والوساطة والأمانة
تسلمْ من ان تعزى لزور أو فضول أو خيانة

جاءت القافية بإعجام الهاء ، والصواب أن تبقى عريَّةً عن النقط « الديانَهْ ... الأمانَهْ ... خيانَهْ » لأن تاء التأنيث لا تكون رويًّا ، وإنما هي هاء وصل بعد حرف الروي الذي هو النون المفتوحة . وفي هذه الأبيات اختلال في تقطيع البيت إلى شطرين متساويين كما أسلفت ، فكلمة « الشهادة » في البيت الثاني فـ« الشها » في الشطر الأول و« دَهْ » في الشطر الثاني ، وكلمة « لزور » فـ« لزو » في الشطر الأول و« رٍ » في الشطر الثاني . وقد ذكرت هذه الأبيات في الديوان على الصواب ص٩٨ عدا قافية البيت الأول فقد ذكرت كما هي مثبتة هنا . وفيها « اسمعُ » بضمة على العين ، والصواب فيها « إسمعْ » فعل أمر بإثبات همزة الوصل وجعلها همزة قطع لضرورة الوزن .

وجاء ترتيب المقطعة رقم (٥٤) ص٩٩ ومطلعها :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يا وحشة الإسلام من فرقة شـاغلة أنفسها بالسفَهْ

على أن قافيتها الهاء ، وليست كذلك ، فحرف الروي هنا هو الفاء ، والهاء للوصل ، فيجب وضعها مع قوافي حرف الفاء . انظر « الكافي في العروض والقوافي » للخطيب التبريزي ص١٥١ ، ١٥٢ .

وكذلك المقطعة رقم (٥٥) و(٥٦) وقافيتهما : « الشريعَهْ » و« للوديعَهْ » فحرف الروي فيهما هو العين ، والهاء للوصل ، فموضعهما مع قوافي حرف العين .

وثمة ملحوظتان تعدَّان من لوازم عمل المحقق وعدَّته ، وهما من الأمور التي تواضع عليها أهل هذا الفن : الأولى ضبط النص ، وقد أشار جامع الديوان إليه إذ ذكر (ص٣) أنه قام بضبط النص بالشكل التام لإزالة اللبس والغموض وتحديد المعنى . ومن يقرأ في الديوان يجد كثيراً من الأبيات لا ضبط فيها مثل البيت (٣) ص٦٢ :

وبودي لو أقضي العمر في خدمة الطلاب حتى في الكرى

وكذا البيت (٦) ص٨٥ :

رويدك جرت فحج واقتصد أمامك نهج الطريق الأعمْ

الثانية : أنه كثيراً ما يذكر في تخريجه للشعر « الورقة كذا » مما يوهم بأن الكتاب الذي ينقل منه مخطوط ، في حين أنه ينقل من كتب مطبوعة ، لأن اصطلاح ذكر الورقة لا يستخدم إلا في الكتب المخطوطة ، وأما المطبوعة فلا يذكر فيها عادة إلا الأرقام أو يقال ص أو صفحة ..

رابعاً : الأخطاء المطبعية نشير إلى بعض كلمات منها :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصفحة	البيت	الخطأ	الصواب
٤٠	٦	صادْم	صادمْ
٤٧	١١	الزاخْر	الزاخِرِ
٥٠	٥٤	قبولُ	قبولٌ
٦١	٢	حالِ	خالٍ
٦٤	١	وسبطية	وسبطيه
١٠٣	٢	فيكمُ	فيكمْ

وبعد ، فهذه نماذج مما وقع في الديوان على سبيل المثال لا الحصر ، وإننا لنرجو من جامع هذا الشعر أن يسخو على عمله بالجهد والصبر والتبصُّر في طبعته القادمة ـ إن شاء الله ـ ليغدو شعر ابن جبير أقرب ما يكون إلى نظمه الذي خلَّفه ، ويكون مرآة صافية لعصره وثقافته ، تعين الدارس على أخذ الفوائد والعبر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net